الكاتب: أ . د. بلعربي خالد
قسم التاريخ – جامعة سيدي بلعباس

عنوان المقال: الشيخ محمد بن يوسف السنوسي
صورة من واقع المشهد الثقافي في حاضرة تلمسان-

البريد الالكتروني: belarbi.tlemcen@yahoo.fr

تاريخ الارسال: 2019/02/04 **تاريخ القبول:** 2019/03/02 **تاريخ النشر:** 2019/03/28

الشيخ محمد بن يوسف السنوسي صورة من واقع المشهد الثقافي في حاضرة تلمسان

الملخص بالعربية:

يحاول هذا المقال التعرض لشخصية علمية بارزة عاشت في العهد الزياني خلال القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي، هذه الشخصية تتمثل في الفقيه العالم الشيخ محمد بن يوسف التلمساني الذي رسم، معالم المشهد الثقافي لحاضرة تلمسان كغيره من العلماء التلمسانيين.

خلال هذه الفترة التاريخية أين بلغ الحراك الثقافي أوجه، سنتعرض إلى هذه الشخصية العلمية من حيث نشأته، و تحصيله العلم، و إفادته العلم، ثم أهم المؤلفات التي تركها و التي تعبر عن رغم غزارة علمه وسعة اطلاعه .

كلمات مفتاحية: محمد بن يوسف السنوسي- تلمسان-

Abstract :

This article attempts to expose a prominent scientific figure who lived in the erea of Zianide during the ninth century AH fifteenth century AD, this personality is represented by the world jurist Abu Abbas Ahmed bin Mohamed Ben Zakri Tlemceni, , like other Tlemcenian scientists during this historical period where the cultural mobility reached, we will look at these.

The scientific personality in terms of its origin, the collection of science, and its testimony science, and then the most important works that Leaving them, which express despite the abundance of knowledge

مقدمة:

شهدت تلمسان في عهد الزيانيين حضورا متزايدا في مجالي العلم، فقد نبغ فيها و أحوازها عدد من الأعلام المرموقين، لعل من أبرزهم فيمن حاز قصب السبق في العلم و المعرفة، الفقيه العالم المتفنن الشيخ أبي عبد الله محمد بن يوسف السنوسي.

إن تسليط الضوء علة هذه الشخصية التلمسانية العريقة ليس الغرض منه إخراجها من طي النسيان و التنويه بتراثها المخطوط و المطبوع فحسب مع أنه في حد ذاته مطلب ملح و مشروع،بل إن ذلك من شأنه-أيضا-أن يمدنا بالمعطيات الضرورية التي نكون في غنى عنها إذا مارمنا رسم معالم المشهد الثقافي لحاضرة تلمسان في عصر بلغ الحراك الثقافي أوجه، و أضحى الاستقطاب العلمي ظاهرة العصر.

سنحاول في هذا البحث رصد مختلف أطوار هذه الشخصية العلمية ، و ما كان له أثر في مجتمعه و ما قدمه من إضافة إلى رصيد المعرفة الإسلامية في عصره .الحياة الثقافية بتلمسان في عصر الشيخ أبي عبد الله محمد بن يوسف السنوسي، و التعرف على البيئة الفكرية التي عاشت فيها هذه الشخصية العلمية، و بالتالي إدراك أهمية مساهمة عصر السنوسي في تطور الثقافة العربية الإسلامية في بلادنا، و دور الشيخ السنوسي في تلك المساهمة.

لقد دأب بعض المستشرقين : و من تأثر بهم من الباحثين المسلمين في الحكم على الإنتاج الثقافي في بلادنا دون القيام بدراسة تمحيصية له، ذاهبين إلى أنه دخل عصر الانحطاط و الجمود الفكري منذ سقوط الدولة الموحدية، و حجتهم في ذلك تدهور الأوضاع السياسية في بلاد المغرب الإسلامي بصفة عامة آنذاك، غير أنه إذا عدنا إلى كتب التراجم و غيرها من الكتب التي ألفت خلال هذا العصر لا نجد مبررا لهذه الاتهامات التي وجهها هؤلاء المستشرقين، فالذي نلاحظه من تطور فكري بعد هذه الفترة يدحض كل تلك الآراء، و ما الدراسات التي قام عدة باحثين في هذا المجال إلاّ دليل قاطع على معارضتهم لهذه المزاعم، انطلاقا من أن الثقافة العربية الإسلامية في بلاد المغرب الإسلامي عامة ظلت تزدهر و تنمو حتى بعد سقوط دولة الموحدين، و إذا أخذنا المغرب الأوسط الذي كانت تحكمه الدولة الزيانية و عاصمته تلمسان، فإن الحركية الثقافية به كانت نشيطة و فعالة، و قد عاش السنوسي في القرن التاسع الهجري، الخامس عشر الميلادي أثناء حكم بني زيان لبلاد المغرب الأوسط.

1-الحركة العلمية بتلمسان في عصر السنوسي:

إن الذي نريد التأكيد عليه هو أن الحياة السياسية القلقة و المتدهورة التي عاشتها الدولة الزيانية خلال هذه الفترة نتيجة سلطة بعض الأمراء العرب و نفوذهم داخل الدولة، و التدخل الحفصي و المريني في شؤون العرش الزياني، لم تؤثر بشكل كبير على الحياة الفكرية فيه، أو تعرقل نموها إذ لم يمنع ذلك من تطور العلوم و ظهور الكثير من فطاحل العلماء خلال هذه الفترة [1]

و يلاحظ أن الكثير من الأحداث السياسية ساهمت في دفع الحركة الفكرية و إثرائها أثناء عصر الشيخ محمد بن يوسف السنوسي و من أمثلة ذلك أن عهد أبو العباس أحمد المعتصم بن أبي حمو الثاني، الملقب بالعاقل (834 – 866 هـ / 1431 – 1462م) و الذي تعرض إلى محاولات إنقلابية و ثورات من قبل منافسيه من البيت الزياني. لم ينسيه ذلك تشجيع العلم و العلماء و هي الخصال الحميدة التي كان يتمتع بها أبو حمو موسى الزياني الثاني، كما تشير إلى ذلك بعض النصوص التاريخية، كما أن عهد أبو عبد الله محمد الرابع الثاني الذي حكم دولة بني زيان بتلمسان من سنة 873 – 910هـ/ 1408 – 1505م الذي شهد حالة اللإستقرار نتيجة التدخل الحفصي في شؤون دولته بقيادة أبو عمرو الحفصي. لم يمنع الحركة الفكرية من التطور، فقد استطاع خلال هذه الفترة الإمام الشيخ السنوسي من تأليف "العقيدة الكبرى" في عشرة أوراق و سماها "**عقيدة أهل التوحيد المخرجة من ظلمات الجهل و ربقة التقليد المرغمة أنف كل مبتدئ عنيد**" تعرض فيها السنوسي لأهم عقائد الأشعرية ثم قام بشرحها في كتاب سماه "عمدة أهل التوفيق و التسديد في شرح عقيدة أهل التوحيد [2]، و العقيدة الوسطى " و هي دون الكبرى، و شرحها في مختصر ثم صنفها سنة 875هـ / 1470 م و هي في ثلاثة عشر كراسا. كما ألف في هذه الفترة رسالة في التصوف رد فيها على أبي الحسن الصغير، و دافع فيها عن فضل التصوف و رجاله، و فرغ منها في جمادى الثانية سنة 885هـ، و هي تعتبر من بين أهم مؤلفاته في التصوف، توجد بالخزانة العامة بالرباط نسخة مخطوطة لهذه الرسالة تحت رقم 1845، و لقد نشرها الأستاذ جمال الدين بوكلي حسن كاملة كإحدى ملاحق رسالته الموسومة بالإمام السنوسي و علم التوحيد ما بين ص 401 و 438 و عنوان هذه الرسالة " نصرة الفقير في الردّ على أبي الحسن الصغير" و هي توجد في ستة فصول بالإضافة إلى

مقدمة و خاتمة. إن هذا الإنتاج الفكري يكشف أن المستوى الثقافي الذي بلغة السنوسي كان كبيرا، كما يكشف عن سعة انتشار أفكاره من خلال وجود هذا الإنتاج في مناطق مختلفة من العالم الإسلامي، كما يبيّن أن أفكار السنوسي ظلت حيّة لدى الأجيال التي جاءت من بعده و بالتالي فإنه يمكن القول أن الدولة الزيانية التي كانت عاصمتها تلمسان ظلت محافظة على مكانتها العلمية تعيش ازدهارا ثقافيا حتى في أحلك الظروف السياسة التي مرت بها. لقد ظلت تلمسان خلال هذه الفترة تعرف تقدما في سائر المجالات الثقافية، و كان من عوامل ذلك ما أبداه سلاطين خلال هذه الفترة أو سابقتها من تشجيعهم للعلم و العلماء، و حرصهم على توفير شروط النمو الثقافي و جلب أكبر العلماء و أشهرهم للتدريس بتلمسان، و كذا عنايتهم بإنشاء المؤسسات التعليمية [3] ، فقد بنى السلطان أبو العباس أحمد المعتصم مدرسة جديدة بزاوية الشيخ الصالح الحسن بن مخلوف أبركان على غرار أسلافه من سلاطين بني زيان الذين سبقوه في هذا المجال. و الظاهر أن سلاطين بني زيان كغيرهم من ملوك الدول الإسلامية كانوا يهدفون من وراء إنشاء هذه المدارس في المقام الأول إلى نشر التعليم و الثقافة من جهة، و توجيه الرعية من جهة أخرى بما يخدم مصلحة الدولة و المذهب المالكي، و البحث الاستقرار و السكينة بين الرعية. و لهذا كان يشرفون على المدارس إشرافا مباشرا و يؤكدون على تدريس الفقه و الأصول المستمدة من أفكار المذهب المالكي و آرائه و في الحقيقة فإن إنشاء المدرسة في حد ذاته يعد تطورا في الحياة الثقافية و التعليمية، كما كان لها دورها في تنشيط الدراسات الفقهية و الأدبية.

كما كان هذا السلطان يجالس العلماء و أهل الفضل و الصلاح و يشجعهم على التصنيف و يحضر دروسهم و محاضرتهم [4] ، كما كثير في عهده الإقبال على طلب العلم و الرحلة في سبيله، و على هذا ظلت سوق الثقافة الإسلامية خلال القرن التاسع الهجري، الخامس عشر الميلادي رائجة بتلمسان، و أمكن لهذه الثقافة أن تتطور و تتقدم بدون أن تتأثر بالظروف السياسية التي مرت بها الدولة الزيانية آنذاك، و يبدو أن هذه الإنجازات لم تأت صدفة أو لمجرد رغبة الملوك في تخليد ذكراهم بل تمت إنجازات مماثلة خلال تلك الفترة في تونس و فاس اقتضاها النمو الثقافي الذي شمل أقطار المغرب [5] ، مما يجعلنا نعتقد أن بلاد المغرب كانت كلها، آنذاك تعرف نموا ثقافيا مثلما كان الأمر في أقطار أخرى بأوروبا،و

بخاصة إيطاليا، إذ فليس من الغريب أن يشهد القرن التاسع و الذي عاش فيه السنوسي نبوع عدد كبير من رجال العلم و الأدب و بروز إنتاج ثقافي غزير يخص سائر المجالات.

و من العلماء الذين كان لهم دور كبير في دفع الحركة الفكرية و العلمية عصر الشيخ السنوسي أبو عبد الله محمد بن محمد بن مرزوق الحفيذ (ت 842هـ/ 1438م) الذي أخذ العلم على يد سعيد العقباني و الشريف التلمساني و المصمودي، و أبي الحسن الأشهب، كما درس على يد بعض من علماء المشرق و المغرب و قد اشتهر بعلمه و فضله في الأمصار التي زارها. و قد ألف عشرات الكتب في مختلف العلوم. و منهم كذلك أبو عبد الله الحباك المتوفي سنة 867هـ، مؤلف شرح تلخيص ابن البناء، و أرجوزة بغية الطالب في علم الأسطرلاب، و شرح التلمسانية في الفرائض[6]، و منهم محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن محمد بن الإمام التلمساني المتوفي سنة (845هـ / 1441م) الذي كان له قدم في البيان و التصوف و الأدب و الشعر و الطب[7]، و كذلك قاسم بن سعيد العقباني (854هـ/1450م) الذي حضر المجالس العلمية التي كان يديرها الشيخ العالم ابن حجر بمصر و القاهرة[8] و منهم محمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن مرزوق الشهير بالحفيذ (842 / 1438م) الذي يعد من أكبر فقهاء المزارقة، و ملك ناصية البيان و اللغة، كذلك كان ملما بالتصوف[9]، و قد عرف عصر السنوسي ظهور المضفات اللغوية و الأدبية، فقد اهتم الشيخ أبو عبد الله محمد الشريف (ت 847 / 1143م) إمام جامع الخراطين بتلمسان بتصنيف مختصرا في شرح التسهيل، تقييدا سماه "الثاقب في لغة ابن الحاجب"[10] كما ظهر في هذا العصر من أبو الحسن علي بن محمد القرشي البسطي القلصادي نزيل تلمسان، كان نابعا في الرياضيات والفرائض و غيرها من العلوم من تأليفه كشف الحجاب عن قانون الحساب، و شرح ابن ياسمين في الجبر و المقابلة و مختصره، و شرح فرائض مختصر خليل[11] كل هذا يدل على أن إزدهار الحركة العلمية خلال عصر السنوسي كان شاملا عاما، و متوازنا، و لم يكن في اتجاه ديني محض على حساب العلوم العقلية، فكان أبو عبد الله الشريف، و سعيد العقباني، و ابن مرزوق الحفيذ، و السنوسي نموذجا للعالم الكامل المتزن. و كانت الحياة الفكرية بتلمسان في القرن التاسع الهجري قد بلغت درجة لم تبلغها قط من قبل، و

أصبحت تضيئ رحاب المغرب الأوسط بنور المعرفة، فقامت تلمسان بدور حاسم في تقدم الحضارة المغربية الإسلامية، و كانت مركز إشعاع فكري هام.

2- مولده و نشأته:

هو الإمام محمد بن يوسف بن عمر بن شعيب السنوسي، و المكنى بأبي عبد الله ، و لقب شهرته السنوسي ،عرف بذلك نسبة إلى قبيلة بني سنوس بتلمسان .

وبالنسبة لمولده فإن كتب التراجم التي ترجمت له لم تتطرق إلى تاريخ ولادته بالضبط فالبعض يرجعها سنة832ه/1428م، أما البعض الآخر و من بينهم التنبكتي أحمد بابا فيرجعها إلى مابعد سنة 830ه/1426م[12] .

تربى الإمام السنوسي في أسرة دين و صلاح فقد تميز أبوه بالزهد و الصلاح في الدنيا و اشتغاله بتعليم القرآن الكريم، و كان أخوه لأمه"علي التالوتي الأنصاري"(ت895ه)عالما و محققا وحافظا.

3-تحصيله للعلم:

يعد السنوسي ضمن الفئة المتأخرة من علماء تلمسان الكبار، إذ نهل من الينابيع الأخيرة التي زادت في إرساء قواعد المعرفة في بلده، أي ممن اخذوا معارفهم من عمالقة العصر الذهبي لتلمسان :علماء القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي)هذا العصر الذي يعد أحد أزهى عصور الثقافة الإسلامية في تاريخ المغرب الأوسط الزياني إذ تنافس فيه أساتذة العلم و المعرفة الذين أ سهموا في رسم معالم مشهد ثقافي فكري اتسم بالثراء و التنوع الفكري و أصالة العطاء العلمي و من تم تأتى للشيخ محمد بن يوسف التلمساني أن ينهل من معين العلوم و المعارف التي كان يزخر بها محيطه و التيكان يقوم على بثها و تلقينها جهابذة فقهاء العصر و فطاحلة علمائه[13] .

و يبدو أن حرصه على لقاء شيوخ العلم و الاستكثار من الأخذ عنهم كان من دواعي مباهاته بما تهيأله-مما لم يتهيأ لكثير من أترابه من علو الإسناد و اتساع الرواية و لم يتردد كتاب التراجم في إثبات أنه"لقي كثيرا من أهل العلم و الدين و الزهد و الورع أخذ عنهم العلم ببلده من بينهم:

- -والده أبو يعقوب بن عمر بن شعيب السنوسي:الذي حفظ ابنه محمد السنوسي القرآن الكريم.

- الشيخ نصر الزواوي:الذي يعد من أكابر تلامذة"ابن مرزوق الحفيد و قد تلقى عليه"السنوسي" الكثير من فنون العربية كما لازمه مدة طويلة.
- -أبو الحسن علي بن محمد التالوتي الأنصاري(ت895ه) و هو أخو السنوسي لأمه و قد أخذ عنه السنوسي"رسالة ابن أبي زيد القيرواني(ت389ه) ويعد التالوتي أستاذا و مؤدبا لأخيه محمد و زميلا له في طلب العلم و تتلمذ معا على يد الشيخ"عبد الرحمن الثعالبي"
- -أبو زيد عبد الرحمن الثعالبي:أخذ عليه السنوسي"صحيح البخاري" و "مسلم" و غيرهما من كتب الحديث.
- -الشيخ أبو عبد الله محمد بن قاسم بن تومرت الصنهاجي:أخذ عنه السنوسي جملة من علم الحساب و الفرائض.
- -ابراهيم التازي:أخذ عنه في التصوف حيث ألبسه الخرقة و حدثه بها عن شيوخه[14] .

4-إفادته العلم:

كان الجلوس للتدريس و القيام على بث العلم من أبرز ما يميز الشيوخ المتمرسين و يعلو بهم فوق أترابهم و كانت حلق نبهاء المشايخ تغص بطلبة العلم الذين يؤمونها من جميع البلاد و مختلف الأقطار.

ويكون ما تمتع به الفقيه التلمساني من مؤهلات علمية قد هيأه للاضطلاع بمهمة التدريس،فقد كان في بلده متصديا لإفادة العلم، و على ما يمكن أن يلتمح من أنه لازم بلده بعد أوان الطلب،فلم يسجل له حضور مشهود خارجها، أو استجازوه-على النأي-فيما وضع من كتب .

ومع ذلك لا نكاد نقف إلا على عدد محدود من تلاميذه، عنيت كتب التراجم بتقييد أسمائهم و هم على مايلي:

- -عمر بن عمر الملالي: و هو تلميذ السنوسي لازمه مدة خمسة و ثلاثين سنة و أخذ عنه جل العلوم و قد قام الملالي بتأليف كتاب في مناقب شيخه سماه"المواهب القدسية في المناقب السنوسية" الذي تطرق فيه إلى حياة شيخه بالتفصيل.
- -أحمد زرق البرنسي(ت899ه):تتلمذ على يد السنوسي في علم العقائد و التصوف.
- -ابن صعد التلمساني(ت901ه)

- -أحمد بن عيسى الورنيدي(من أهل القرن التاسع الهجري/15م كان يدرس عند السنوسي علم العقائد.
- -أحمد بن الحاج اليبدري(ت930ه):الذي كان إماما فاضلا ملما بفنون العلوم.
- -محمد بن محمد بن العباس التلمساني:(توفي بعد سنة 920ه)
- ابن جيدة المديوني الوهراني (ت951ه): أخذ عنه السنوسي مقدمته الصغرى[15] .
- إن هؤلاء التلاميذ الذين تتلمذوا على يد "السنوسي" خاصة في علم التوحيد الذي كان من عظيم اهتماماته و فرط عنايته هم الذين سينشرون علمه،في هذا العلم في العهد الذي يلي الشيخ السنوسي.

هذا، ونظرا لارتوائه من العنصر الأصيل حلاه ابن مريم صاحب كتاب "البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان "بوحيد عصره، إنه استوعب جيدا كل علوم عصره وفهم بعمق مقاصد العلماء السابقين وحصل على رصيد معرفي عظيم مكنه فيما بعد من احتلال الريادة العلمية في عصره. إن علماء عصره كانوا متمكنين من علم أو علمين، وكان هو صاحب كفاءات في كل مجالات المعرفة، الأمر الذي جعل معارضيه أنفسهم يعترفون له بسبقه، فهو في آن واحد الفقيه الفذ والمفتي اليقظ والمتكلم المحنك زعيم علم التوحيد، والرياضي شارح ابن الياسمين والفرضي والفلكي الناظم والطبيب الحكيم والصوفي المناضل. ولإبراز أثر السنوسي في التيار الفكري بالمغرب أولا ثم في العالم ثانيا، فقد كان من مبررات تأليف ابن مريم لكتابه "البستان" ما جاء في مقدمته على لسان السنوسي، ونقتطف منه فقرة: **"ليكن اعتناؤك يا أخي بمن تأخر من الصالحين وخصوصا من أهل بلدك حلولا بالسكنى والدفن أكثر من اعتنائك بمن تقدم منهم وذلك لأوجه، أحدها أن الغالب فيمن تقدم إمكان الاستغناء عن التعريف بأحوالهم بتأليف من مضى، والثاني أن نشاط النفوس للخير والاقتداء يذكر محاسن المعاصرين لها**

أو من قرب من المعاصرين أكثر من نشاطها بذكر من بعد زمانه لأن منافسة المعاصر لمعاصره في الخير معلومة...«[16] إنه ما من شك أن مضمون الكتاب موجز في هذه الفقرة. فالذي يجب ذكره أن إدراكه الفائق للحالة المزرية التي تعيشها الأمة الإسلامية مكنه من التحدي، لا بزعامة المشيخة الدينية ولا بزعامة المشيخة السياسية، بل بزعامة تربوية، إنه تيقن بأن أحسن طريق للنهوض بالأمة لا يمكن تحقيقه إلا بسياسة تربوية رشيدة

رافضة للتقليد وعازمة على إحياء الاجتهاد ليس الديني فقط، بل في جميع ميادين الحياة، إنه كان يرمي إلى إعادة بناء الفكر الذي يمكن المرء المؤمن من مسايرة التطور الحضاري ولو بتعصب أبدا الى الرجوع فترة الخلفاء الراشدين التي تعتبر من العديد من المفكرين أنها الأصل في العودة الى صفاء العقيدة، وعلى هذا الأساس أعاد النظر في التأليف حول العقيدة فقدم للأمة خمس مستويات حسب فئات المجتمع، وكل واحدة منها أردفها بشرح. هذا المجهود الفكري جعل علماء المشرق يعترفون بسبقه في ميدان علم التوحيد حتى سموا علم التوحيد بعلم المغاربة، إنه يعد بحق المصلح المجدد وهو أيضا آخر المجتهدين الأشاعرة بالغرب الإسلامي.

5-مؤلفاته:

ذاعت للفقيه الشيخ محمد بن يوسف التلمساني شهرة واسعة في مجال الكتابة و التأليف بالنظر إلى ما وضعه من مؤلفات كثيرة،حرص على إثبات عناوينها:

لقد ترك الإمام السنوسي جملة من الكتب ناهز عددها الخمسين؛ في العقيدة والتفسير والحديث واللغة والمنطق والفلك والطبّ، وفي غير ذلك من جوانب الثقافة الإسلامية، ممّا يدلّ على رسوخ قدمه في العلم والاجتهاد، نذكر نماذج منها

*__في العقيدة__

"السنوسية الكبرى في العقائد، وشرحها"، و"السنوسية الوسطى وشرحها"، و"السنوسية الصغرى (أم البراهين) وشرحها"، وشرح نظم أحمد بن عبد الله الزواوي الجزائري بعنوان" المنهاج السديد في شرح كفاية المريد".

*__في التفسير وعلوم القرآن__

تفسير الفاتحة وفواتح البقرة

-مختصر حواشي التفتازاني على الكشاف.

*__في الحديث وعلومه__

مختصر شرح صحيح مسلم للأبي المسمى بإكمال الإكمال -

شرح صحيح البخاري -

-شرح مشكلات البخاري.

*__في السيرة النبوية__

مختصر الروض الأنف للسهيلي

في الفقه وأصوله

مختصر في أصول الفقه -

شرح الوغليسة المسماة بالجامع في الأحكام الفقهية -

شرح جملة من المدونة -

تعليق على مختصر ابن الحاجب -

<u>*في علم اللغة</u>

شرح الآجرومية

في المنطق

مختصر في المنطق

شرح مختصر ابن عرفة في المنطق -

<u>*في الطب</u>

(شرح أرجوزة ابن سينا في الطب (مخطوط

(في فنون أخرى: شرح ابن اليسمين في الجبر والمقابلة (مخطوط)

<u>6-السنوسي في عيون العلماء:</u>

صاحبنا الفقيه العالم العلَم صدر المدرسين ":(قال عنه الونشريسي في المعيار (250/1 وحجة المتكلمين "**وعمدة المحققين ونخبة أكابر المؤلّفين، الولي الصالح الخاشع المتبرَّك .**"**به، سيدي أبو عبد الله محمد بن يوسف السنوسي**"[17]

وقال محمد بن شنب في تحقيقه على دائرة المعارف (999/2):" **يجمع علماء المغرب على الثناء على السنوسي، فقد كان في نظرهم مُحي الإسلام في مستهل القرن التاسع الهجري، ويشيدون بعلمه خاصة تفقهه في علم الكلام كما ينوهون بخشيته لله وغيرته**"

"."وقال ابن عساكر في كتابه دوحة الناشر" ما رأيت من غربل هذا العلم مثل هذا الرّجل"

7-تصوفه:

لابد من الإشارة في البدء إلى أنّ الإمام السنوسي، كما يصفه تلامذته وعارفوه، كان حسن الخلق متواضعاً، رقيق القلب، رحيماً، مبتسما في وجه من لقيه، ليّنا هيّنا حتى في مشيته، مشفقا على الخلق، يمشي في قضاء حوائجهم عند السلطان، آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر، يقول عنه تلميذه الملاّلي: " **ما رأيت أحسن خلقا منه، ولا أوسع صدرا، ولا أكرم نفسا وأعطف قلباً، ولا أحفظ عهدا منه".**"

أمّا تصوّفه فلم يكن تصوّف تقليد ، لا في تصوفه ولا في ممارسته؛ بل كان له آراء ومواقف ترقى به إلى مرتبة المجدد في علم التصوف، وقد كان يحارب المبتدعة الذي تلبّسوا بالتصوّف.

ومن المصطلحات التي سعى الإمام السنوسي في تقويمها مصطلح الولاية والوليّ حيث نقل عن بعضهم- مقرا إيّاه- في شرحه على الوسطى وغيره، ما ملخّصه

أحدها: أن يكون عارفا بأصول الدين حتى يفرّق بين الخلق والخالق وبين النبيّ والمدّعي

الثّاني: أن يكون عالما بأحكام الشريعة نقلاً وفهما ليكتفي بنظره عن التقليد في الأحكام الشرعية كما اكتفى عن ذلك في أصول التوحيد.

الثالث: هو أن يتخلق بالخلق المحمود الّذي يدلّ عليه العقل والشّرع.

الرّابع: أن يلازمه الخوف أبدا سرمدا ولا يجد لطمأنينة النفس سبيلا". (شرح السنوسية الكبرى،)

8-وفاته

توفي رحمه الله يوم الأحد ثامن عشر جمادى الأخيرة عام خمسة وتسعين وثمانمائة (895هـ) بعد مرض ألزمه الفراش مدة عشرة أيام عن عمر يناهز63سنة و قد دفن بمقبرة العباد السفلي إلى جانب قبر أخيه "علي التالوتي"الذي وافته المنية من نفس السنة و ضريحه مازال قائما إلى يومنا هذا.

إن الغرض من هذه العينات من العلماء الذين ذكرناهم هو الإشارة إلى أن عصر الشيخ بن محمد السنوسي كان يعج بالعلماء الذين كان لهم باع طويل في تطور الحركة الفكرية في تلمسان خلال القرن التاسع الهجري، و قد ساعد ذلك السنوسي على تفتق مواهبه الفكرية، مخلفا لنا إنتاجا فكريا ما زالت الإنسانية تتدارسه إلى يومنا هذا.

الهوامش :

1- بوداود عبيد، ظاهرة التصوف في المغرب الأوسط ما بين القرنين (7-9هـ / 13-15م) دار الغرب للنشر و التوزيع، وهران 2002.

2- التنبيكي أحمد بابا، نيل الانتهاج بتطريز الديباج، دار الكتب العلمية بيروت، (بت) ص 328.
3- الزر كلي خير الدين، الأعلام، المجلد 8، دار العلم للملايين، بيروت ط5، 1995، ص 301.
4- من بين العلماء الذين درس على يدهم السنوسي نذكر على سبيل المثال لا الحصر، والده أبو يعقوب يوسف السنوسي، الشيخ نصر الزواوي، الولي الحسن ابركان الراشدي محمد بن القاسم بن تومرت، يوسف بن أحمد الشريف و غيرهم ...
5- بوداود عبيد : المرجع السابق، ص 306.
6- عبد العزيز فيلالي، تلمسان في العهد الزياني، ج1، دار موثم للنشر و التوزيع، الجزائر 2002، ص 71.
7- ابن مريم، البستان في ذكر الأولياء و العلماء بتلمسان، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر 82 ص 35.
8- عبد الحميد حاجيات، الحياة الفكرية بتلمسان في عهد بني زيان في مجلة الأصالة، العدد 26 ص 245، جويلية – أوت، 1975، ص 138.
9- ابن الأعرج محمد حسن السلماني، زبدة التاريخ و زهرة الشماريخ، الخزانة الحسنية، الرباط، مخطوط رقم 170 ج3، ورقة 96.
10- عرف عهد هذا السلطان عدد كبير من الفقهاء عاشوا بمدينة تلمسان، و في غيرها من حواضر بلاد المغرب الإسلامي، و قد مات عدد كبير منهم في أيامه، نذكر منهم أبو إسحاق إبراهيم التالوتي، محمد بن مخلوف الراشدي، أحمد بن محمد بن زكري ...
11- التنبكتي، المصدر السابق، ص 316، ابن مريم، المصدر السبق، ص 219-220.
12- عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق ج2 ص 335.
13- نفسه، ص 335.
14- عبد الحميد حاجيات، المرجع السابق، ص 139.
15- ابن مريم، المصدر السابق، ص 220.
16- عبد الحميد حاجيات، المرجع السابق، ص 148.
17- الونشريسي المعيار ج3 ص152.